الفصل الثامن

الفنّ التشكيلي..وتنمية الذكاء

" لا يمكن بحالٍ من الأحوال إنكار أهمية الفنون التشكيليَّة من رسومٍ وزخرفةٍ ..وغيرها، من تنمية ذكاء الأطفال.ولذلك فسوف نستعرض في عجالةٍ أهمية هذه الفنون في العرض التالي:

أوَّلاً: تنمية السلوك الابتكاري، فإتاحة الفرصة للأطفال لممارسة الأنشطة الفنيَّة تفتح أمامهم المجال لكي يندمجوا في الممارسة الابتكارية التي يقوم بها الفنان. فالاندماج الفاعل في تركيب العناصر الفنيَّة أساس النموّ الذاتي للأطفال، وذلك نوع من الممارسة الابتكارية ينعكس على السلوك العام للطفل طوال حياته..

ومن هنا يجب على الآباء والمُربِّين الاهتمام بإثارة وتنمية التفكير الابتكاري لدى أطفالنا بشتى الطرق، كأن يُسمح لهم باكتشاف حلول مختلفة للمشكلات، وعدم تقبُّل الأمور على علاتها، إضافة إلى تنمية قدراتهم من خلال الملاحظة.

ثانيًا: نمو القدرات العقليَّة، حيث يتطلَّب ممارسة الفنون قوَّة ملاحظة وتخيُّل وتذكُّر وفهم وإدراك وتصوُّر. فالإنتاج الفني لا يخلو من هذه العوامل أو من أكثرها، والطفل حين يمارس الفنّ يستدعي خبراته السَّابقة ويتعرَّف على خبرات جديدة وهذا ــ بالطبع ــ يقوي ذاكرته وينشطها. وقد تتفوق التربية الفنيَّة على بعض المواد التربوية الأخرى في كونها تُنمِّي القدرة علي الخيال، هذه القدرة التي لها دور كبير في بناء الأفكار وابتكار كُلّ جديد.

ثالثًا: تنمية الاتجاه النقدي عند الأطفال، وذلك من خلال المحاورة حول الأعمال الفنيَّة، وإيضاح جوانب القصور والقوَّة فيها، وتعويدهم على النقد البناء.

رابعًا: التعبير الفني يُساعد الطفل على الاستغراق في الخيال للوصول إلى رؤى جديدة تحمل قيماً واستبصارات لها دلالات ومعاني متنوعة ومختلفة ومبتكرة، يتحقَّق من خلالها إدراك الطفل لذاته المبدعة.

خامسًا: إنَّ التعبير الفني للطفل يعتبر نوعاً من تركيز الانتباه الذي يُساعد الطفل على الكشف والتدقيق في البحث والملاحظة .

سادسًا: يُعد التعبير الفني مصدراً للمتعة والإثارة العقليَّة، ويُقدِّم فرصاً كثيرة لتحقيق الذات وتجديدها باستمرار وتكاملها.

سابعًا: تدريب الحواس وتنميتها، فالفنون بمختلف مجالاتها تُنمِّي الإدراك البصري عن طريق الإحساس باللَّون والخط والمساحة والحجم والبُعد والإدراك اللمسي عن طريق ملامس السطوح. ومن التعبيرات الشائعة في الفنّ أنَّه كائن في كُلِّ ما نصنعه لإمتاع حواسنا، أي أنَّه لا يوجد عمل فني لا يؤثر في الحواس أساساً. واستخدام الطفل للأدوات يُساعده على نموّ التوافق العضلي والتحكُّم بها ويكسبه خبرات مُتعدِّدة وقدرات متنوعة .

ثامنًا: يتيح الفنّ للطفل الفرصة لكي يمرّ بالخبرة الابتكارية بنفسه من خلال حُبَّه للكشف والاستطلاع والبحث والملاحظة والخيال..

لذلك لابدّ أن نترك له حُرِّيَّة اختيار طريقة التعبير، وأن يمرّ بمراحل العملية الابتكارية جميعها، فيقوم بالتجريب محاولاً إيجاد علاقات واستكشاف حلول مختلفة حتى يصل إلى ما يُشعره بالرِّضا، دون أن يعيقه تدخل الكبار.

تاسعًا: تنمية الحساسية والتذوق الفني، وهذا الهدف لا يُعد ضرباً من الترف، إنما هو من متطلبات الحياة العصرية، فالخبرات الفنيَّة تُنمِّي لديهم القدرة على تذوق القيم الجماليَّة المنتشرة في الطبيعة، وكُلّ هذا يؤدي إلى تحسين مستوى معيشة الإنسان فينعكس على ملبسه ومسكنه وكافة أمور حياته. وبقدر ما نُدرِّب الطفل على التذوق ، استطعنا الحصول على مواطن مثقف محافظ على الجمال في كُلِّ مكان.

عاشرًا: إنَّ نشاط الطفل الابتكاري يُساعده على التعامُّل مع مَنْ حوله ويوفق بين الاتجاهات الجماعيَّة والفردية، فهو يجد لذة شخصية أثناء ممارسة العمل ولذة جماعية أثناء رضا المجتمع عمَّا أنتجه من أعمالٍ فنيَّةٍ. فالفنّ يوفر نوع من التوازن بين اتجاهات الفرد العقليَّة والانفعاليَّة والفكريَّة والحسيَّة وبين الوعي واللاَّوعي، ويمكن أن نحوِّل بعض الدوافع المهمة لدى الطفل إلى

دوافع بناءة عن طريق تحرير الأنشطة الفنيَّة التي تؤكد ذاته عن طريق المشاركة الوجدانيَّة له وفهمنا لاتجاهه وميوله.

حادي عشر: الرسم بمثابة اللُّغة التي يتواصل بها الطفل مع الآخرين حينما لا يستطيع التحدُّث باللُّغة اللفظيَّة، لينقل لنا أفكاره وأحاسيسه وانفعالاته.

ثاني عشر: يمرّ الطفل بالعديد من الضغوط، ولذلك يشعر بضرورة التخفُّف من منها، وذلك من خلال مشاركته الايجابيَّة في المناشط الفنيَّة وقدرته على التوفيق بين الخيال والواقع..

لذا يجب على الآباء والمُعلِّمين أن يشاركوا الطفل انفعالاته أثناء التعبير الفني حتى يخلصوهم من الخوف من عالمهم الداخلي المليء بالخيالات، والخوف من سخرية الكبار، فعن طريق اقتلاعنا لهذا الخوف ننطلق بإمكانياته نحو النموّ العقلي، والنضج الانفعالي، والتخفيف من الضغوط النفسيَّة التي قد يتعرَّض لها.

♦رسوم الأطفال..ونموّ الذكاء:

استرعت ظاهرة التعبير الفني لدى الأطفال ــ وعلى نحو أخص رسوم الأطفال ــ انتباه عدد من العلماء، والباحثين الذين انخرطوا في رصد هذه الظاهرة، وتعقبها، ومتابعتها بالفحص، والدراسة، والتأمُّل. فوضعوا لها أطراً، ونظريات عدَّة تتناول تحليل

رسوم الأطفال، وتفسيراتها، والبحث في دوافعها، ومسبباتها، ومتابعة فصول تطورها خلال مراحل الطفولة والمراهقة. فضلاً عن توظيف هذه الرسوم في التعرُّف على بعضٍ من نواحي شخصية الطفل، كتحديد مستوى الذكاء، والتعرُّف على القدرات والاستعدادات الإبداعيَّة، والكشف عن الحالة النفسيَّة والاجتماعيَّة للطفل، وتوظيف هذه الرسوم ـ أيضاً ـ في العلاج النفسي.. إلى غير ذلك.

وتُعتبر رسوم الأطفال وسيلة اتصال، فهي بمثابة رسائل موجهة للآخرين، ووعاء للفكر والمشاعر، شأنها في ذلك شأن الكلمات، سيما أنَّ اللُّغة اللفظيَّة بالنسبة للطفل ـ غالباً ـ ما تقصر عن تحقيق أغراضه التعبيرية، إمَّا لعدم كفايتها أو لانتفاء وجودها أساساً لدى بعض الأطفال غير العاديين. إضافةً إلى كون هذه الرسوم تمثل انعكاساً لشخصية الطفل في سوائها وانحرافها، وفي حالاتها الشعوريَّة واللاَّشعوريَّة، ومن ثمَّ فهي مفتاح لفهمها، والكشف عن أغوارها وتقويمها وتوجيهها.

وأصبحت رسوم الأطفال تُشكِّل مدخلاً مهماً للتعرُّف على شخصياتهم، وتتبع الطريق الأصوب في تربيتهم، وتنمية قدراتهم المختلفة،حيث تتيح الرسوم للأطفال فرصة التعبير عن خصائصهم النفسيَّة، سواء ما يتعلق منها بالقدرات، أو السمات، أو الميول، أو

القيم، والاتجاهات، ممَّا يتطلَّب من القائمين على العملية التربويَّة إدراكاً خاصاً بماهية رسوم الأطفال، ووعياً متقدماً بأهميتها التربوية، وبمكانتها الإبداعيَّة.

وبالرغم من القيمة الجماليَّة، والطاقة التعبيرية العالية، التي تُميِّز رسوم الأطفال إلاَّ أن هذه الرسوم لا تقابل ــ أحياناً ــ بما يليق من تقدير، وأن ما يجري على أرض الواقع قد لا يُعبِّر ــ في كثيرٍ من الحالات ــ عن الموقف الواعي والمتفهم لتلك الرسوم وما تنطوي عليها من قيم إبداعيَّة، وجماليَّة، وأبعاد نفسيَّة وتربويَّة مُتعدِّدة. وذلك حين تقابل تلك الرسوم إمَّا بالإهمال، وعدم الاهتمام من قِبل أولئك الذين لا يعون دور التعبير الفني وأهميته في تربية الطفل. أو حين تقابل رسوم الأطفال باهتمام سلبي قاصر من قِبل أولئك الذين ينظرون للتعبير الفني باعتباره تسجيلاً للواقع ينبغي ــ بحسب النظرة المحدودة هذه ــ أن يكون حرفياً، وليس بوصفه تعبيراً، فتأتي تدخلاتهم بمردود عكسي أكثر ضرراً من الإهمال ذاته، أو من عدم الاهتمام. ويحدث هذا عندما يحاول هؤلاء إرغام الأطفال على التخلي عن أساليبهم الفنيَّة التعبيريَّة الخاصة بهم، والتحوُّل تارة إلى النقل من الواقع أو تقليد الطبيعة، وتارة أخرى إلى تقليد رسوم الكبار وأساليبهم. ممَّا يعني الحكم على طاقات الأطفال التعبيريَّة واستعداداتهم

الفنيَّة والإبداعيَّة بالوأد وهي لا تزال ــ بعد ــ في المهد، أو الحكم عليها بالخمول و بالجمود على أقل تقدير.

ورسوم الأطفال تدل علي خصائص مرحلة النموّ العقلي، سيما في الخيال عند الأطفال، بالإضافة إلي أنَّها عوامل التنشيط العقلي والتسلية وتركيز الانتباه.

ولتلك الرسوم وظيفة تمثيلية تساهم في نموِّ الذكاء لدي للطفل، فبالرغم من أنَّ الرسم في ذاته نشاط متصل باللَّعب، فهو يقوم في ذات الوقت علي الاتصال المتبادل للطفل مع شخص آخر، إنَّه يرسم لنفسه، ولكن تشي رسومه ــ في الواقع ــ الرَّغبة في عرضها وإبلاغها لشخصٍ كبير، وكأنَّه يُريد أن يقول له شيئاً عن طريق ما يرسمه وليس هدف الطفل من الرسم أن يقلد الحقيقة، وإنما تنصرف رغبته إلي تمثُّلها، ومن هنا فإن المقدرة علي الرسم تتمشي مع التطور الذهني والنفسي للطفل، وتؤدي إلي تنمية تفكيره وذكائه.

♦فنّ الزخارف والخطوط..وتنمية الذكاء:

من الفنون العربيَّة الأصيلة التي تُنمِّي الذكاء وتؤدي إلي المهارة والدقة والحيوية في الإبداع والابتكار، بل ويستحب تعليم الأطفال الجمال في الخطوط والزخرفة منذ الصغر، فكما يقول

المُربي الألماني« فريدريك فروبل » (١٧٨٢-١٨٥٢): « إنَّ لدي جميع الأطفال تقريباً مقدرة علي الابتكار والزخرفة أثناء سنواتهم الأولي، ولكن معظمهم يفقد هذه القدرة فيما بعد بسبب عيوب في التعليم أو في البيئة المحيطة والتي لا تشجعهم علي الاستمرار في ذلك الابتكار».

ولذلك فإنَّ استمرار الطفل في الزخرفة وإتقانها وتعلُّمها،هي والخطوط العربيَّة التي تعتبر زخرفة في حدِّ ذاتها، ولكن علي شكل حروف وكلمات يؤدي إلي إتقانه لفنٍّ مهم من فنون تنمية الذكاء والتطوير العقلي والمهاري.